مثل الكلمة الطيبة.. والبناء الإنسان.. والتذكُّر

بناء الإنسان في عقله وقلبه وكل كيانه الروحي والمادي على العقيدة الصحيحة، والقدرة على سلامة التعامل مع أخيه الإنسان ومع الكون والحياة أداءً لرسالته في الوجود.. هذا البناء ميدان مشرق من ميادين الهداية في القرآن الكريم.

وكان من فضل اللَّه تبارك وتعالى على الناس، أن يسَّر القرآن للتذكر، ودعا إلى هذا التذكر بوجوه وأساليب متنوعة، كيما تتحقق الهداية، وتعملَ معالم الكتاب العزيز عملها في بناء حياة أفضل يسلك العباد من خلالها سبيل السعادة في الدنيا والآخرة ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿١٧﴾﴾[القمر: ١٧] وأعداد أخرى.

وعلى هدي هذه الحقيقة: كان من هذا التيسير الذي يقطع العذر، ويحول دون التخلف عن واجب التدبر والعمل ـ كما أسلفنا فيما سبق من القول ـ ما نجد من ضرب الأمثال في الكتاب الكريم، وبيان أن اللَّه يضرب هذه الأمثال للناس لعلهم يتذكرون، ففي سورة إبراهيم: ﴿وَيَضْرِبُ اللَّهُ الأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ [إبراهيم: ٢٥] وفي سورة النور: ﴿وَيَضْرِبُ اللَّهُ الأَمْثَالَ لِلنَّاسِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾[النور: ٣٥] ومن أجل هذا التذكر النافع الذي ينعكس على عملية التحويل في الفرد والمجتمع من الجاهلية إلى الإسلام، تجيء الدعوة إلى العلم لعقل هذه الأمثال. وذلك ما نجده في سورة العنكبوت ـ كما سلف ـ من قول اللَّه تعالى: ﴿وَتِلْكَ الأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلاَّ الْعَالِمُونَ ﴿٤٣﴾﴾[العنكبوت: ٤٣] وفي سورة الحشر نقرأ قوله جل وعز: ﴿وَتِلْكَ الأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾[الحشر: ٢١] والتفكر والتذكر توأمان.

وما من ريب في أن الدعوة إلى التذكر والتفكر وكل ما يعين عليهما. صورة من صور التكريم الذي خصّ اللّه به الإنسان، وأين من ذلك المخلوقات الأخرى في هذا الكون العريض.

كل أولئك بتقريب المعاني المرادة، وجلائها للفهم، وذلك بتصوير الأمر المعنوي بصورة محسَّة ملموسة، وتقريبه إلى الذهن تقريباً يسهل للعقلاء ملاحظته ورسوخه.. وهذه الأمثال: تقودنا - عبر معالم القرآن الكريم - إلى واحد منها، ضربه اللّه سبحانه للكلمة الطيبة «لا إله إلا اللّه محمد رسول اللّه» كلمة التوحيد، وللكلمة الخبيثة كلمة الكفر، ذلكم قوله جلت حكمته في سورة إبراهيم: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ ﴿٢٤﴾ تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ اللَّهُ الأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٥﴾ وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ الأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ ﴿٢٦﴾ يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ ﴿٢٧﴾﴾[إبراهيم: ٢٤-٢٧]. وإلى أن نلتقي على الاستضاءة بنور هذا المثل إن شاء اللّه أود أن أنبه على ما يفعله التقريب لكلمة التوحيد إلى الذهن على هذه الصورة المعجزة: من تعميق لليقين وإيقاظ دائم للعقل والقلب وإنماء الحوافز. ناهيك عن وضوح الرؤية على طريق البناء والإنماء في كل ميدان يتحرك عليه صاحب هذه الكلمة الطيبة المؤمن بها، ولا تسل عن الوثوق بالمنهج الذي يضمن بعون اللّه الطمأنينة والاستمرار.

إعداد المؤمن.. والبناء والكلمة الطيبة

«٢»

كما تؤتي الشجرة الطيبة التي أصلها ثابت وفرعها في السماء أكلها كل حين بإذن ربها، وتمنح الطيب من ثمرها.. كذلك تؤتي كلمة التوحيد «لا إله إلا اللّٰه محمد رسول اللّٰه» هدايتها للعالمين ونورها الذي يضيء دروب المؤمنين كل حين وعلى جميع الأصعدة في النفس الإنسانية وفي المجتمع، وتأخذ بيد من يتخذونها محور حياتهم إلى ما فيه سعادتهم في حياتهم الاجتماعية والاقتصادية والسلوكية وغيرها في الدنيا، وما فيه منجاتهم في الآخرة يوم يقوم الناس لرب العالمين.

إنها تعطي عطاءها كاملاً حسناً كثيراً طيباً تتبدَّى آثاره في بناء الفرد وصياغة المجتمع بل وصناعة التاريخ.

والإنسانية حين تتفيأ ظلال كلمة التوحيد وتلتزم بحقها في كل الشؤون؛ عقيدة وشريعة وعلماً وأخلاقاً، فتلكم الطمأنينة والحضارة التي تسعد الإنسان.. أما حين تتوجه غير هذه الوجهة: فذلكم الشقاء والفوضى وضياع الإنسان.. ولن يغني غناءها في هذه الحال علم مجرد أو انتصارات عقلية مبتورة عنها. والواقع العالمي اليوم في كثير من بقاع الدنيا خير شاهد لما نقول.

ولكن ما هي هذه الشجرة الطيبة التي كانت محور المثل؟ إن رسول اللّٰه ﷺ وهو يبني إنسان الرسالة ويقيم المجتمع القوي الفاضل بعد التعفية على رواسب الجاهلية وأوضارها، كان لا يفتأ يحرك أذهان أصحابه ـ وينمي قدرتهم على المحاكمة، ويزيد من صلة عقولهم وقلوبهم بمعالم الكتاب الذي أنزله اللّٰه هدىً وشفاء ورحمة: صلة حب وتدبر وتذكر، ومن خلال هذه الصورة من صور البناء كان التعريف بهذه الشجرة.

روى البخاري بسنده عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال: كنا عند رسول الله ﷺ فقال: **«أخبروني عن شجرة تشبه - أو - كالرجل المسلم لا يتحات ورقها صيفاً ولا شتاءً - أو قال: ولا ولا ولا، تؤتي أكلها كل حين بإذن ربها» قال ابن عمر: فوقع في نفسي أنها النخلة، ورأيت أبا بكر وعمر لا يتكلمان، فكرهت أن أتكلم، فلما لم يقولوا شيئاً قال رسول الله ﷺ: «هي النخلة». فلما قمنا قلت لعمر: يا أبتاه، والله لقد كان وقع في نفسي أنها النخلة، قال: ما منعك أن تتكلم؟ قلت: لم أركم تتكلمون فكرهت أن أتكلم أو أقول شيئاً، قال عمر: لأن تكون قلتها أحب إلي من كذا وكذا)**. **وفي رواية مختصرة للبخاري ومسلم عن ابن عمر أيضاً قال: قال رسول الله ﷺ يوماً لأصحابه: «إن من الشجر شجرة لا يطرح ورقها مثل المؤمن» قال: فوقع الناس في شجر البوادي، ووقع في قلبي أنها النخلة، فاستحييت حتى قال رسول الله ﷺ: «هي النخلة» وفي رواية: «أخبروني بشجرة».**

الجديد في الموضوع أن رسول الله ﷺ انتقل بنا إلى تشبيه هذه الشجرة التي لا يتحات ورقها صيفاً ولا شتاءً وتؤتي أكلها كل حين بإذن ربها: بالمؤمن.. صلى الله وسلم على معلم الناس الخير كلمة التوحيد، منبع عطاء والمؤمن الذي يحصل له الوجود الذاتي بها حين يفسح لها لتكون ضياء قلبه وعقله فيصبح منبع عطاء لنفسه ولمجتمعه وأمته.

أرأيتم: الشجرة الطيبة التي ضربها القرآن مثلاً لكلمة التوحيد، يشبهها الرسول ﷺ بالمؤمن، هل كثير بعد هذا أن نقول: إذا أردنا بناء الحياة على الوجه الأمثل فليكن في حسباننا من أول الطريق البناء المتكامل للمؤمن الذي استنار قلبه وعقله بعقيدة التوحيد وذاق حلاوة الإيمان الذي تخالط بشاشته قلوب الموفقين؟!

قيمة.. على طريق البناء
الكلمة الطيبة.. والمؤمن
«٣»

في كلام موصول بما عرضنا له فيما سلف من الإشارة إلى المثل الذي ضربه القرآن للكلمة الطيبة «لا إله إلا الله محمد رسول الله» تحسن العودة إلى الإلماحة في تشبيه رسول الله ﷺ للشجرة الطيبة وهي النخلة بالمؤمن، لنرى صنيع إمام البناة بهذه النقلة كيف كانت.

فالله تبارك وتعالى يقول خطاباً له عليه الصلاة والسلام أو لكل من يعي الخطاب: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ ﴿٢٤﴾ تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ اللَّهُ الأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٥﴾﴾[إبراهيم: ٢٤-٢٥].

من هنا ـ والله أعلم ـ من قوله تعالى: ﴿وَيَضْرِبُ اللَّهُ الأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ انتقل رسول الله بالأمة من الكلمة الطيبة إلى من يحملها وينتمي إلى دلالاتها ومنهجها في بناء الحياة بصدق، حيث يصحب الإيمان عمل صالح في كل ميدان من ميادين البناء؛ فالإيمان يزداد وينمو، والعمل الصالح يزداد وينمو، حتى يكون من وراء ذلك استيعاب كل الأنشطة والجوانب، استيعاباً لا تعوزه عقيدة صحيحة تكون أساس الحركة، وعلم ينظم المسيرة، وإخلاص يحول دون الانحراف والتقاعس والثغرات.

فأنت واجد أن الله تبارك وتعالى قد قرَّب لعباده من طريق المثل ما تفيض به حكمة التوحيد بالعطاء والنماء والخير، لما أنها القاعدة التي يقوم عليها البناء تشريعاً وتنظيماً وعملاً وسلوكاً ضمن إطار ينتظم شؤون الحياة دونما استثناء، ولما أن العمل بمقتضاها طريق الفوز بجنة عرضها السماوات والأرض أعدت للمتقين.

ولما كان الإنسان هو المحور في ذلك: انتقل رسول اللَّه ـ وهو يربي ويُعِدُّ للبناء والنماء ـ هذه النقلة من الكلمة إلى من يحملها ويؤمن بها؛ فالإنسان هو المخلوق الذي أنيط به أن يضع بإذن اللَّه أبعاد كلمة التوحيد وما تقتضيه في حياة الفرد والجماعة: موضع التطبيق، فهو المخاطب بهذه الكلمة الطيبة، وهو المكلف بأداء الأمانة التي تنبثق منها؛ فشريعة الإسلام في بنائها للحياة، ونظام الإسلام في الأخلاق والسلوك؛ كل أولئك منوط بالإنسان؛ فإذا وجد الإنسان المسلم الذي يحسن تصور هذه الحقيقة، ويسلم له العمل بمقتضاها ـ كما ينبغي ـ كان من وراء ذلك الخير الكثير؛ ولقد شهد تاريخ الإنسانية كيف بنى أبناء هذه العقيدة حضارة الإنسان بعيداً عن الظلمات التي تغشى حضارة الآخرين اليوم.

هكذا بكل وضوح، بعثاً للعزائم، وإثارة للحوافز، وإنماء للاندفاع الذاتي بسلطان العقيدة يقول عليه الصلاة والسلام: «**أخبروني عن شجرة تشبه ـ أو كالرجل المسلم ـ لا يتحات ورقها صيفاً ولا شتاءً وتؤتي أكلها كل حين بإذن ربها**».

إن هذا الهدي النبوي في بيان لمعالم القرآن الكريم: جدير أن يقفنا بثبات وشموخ عند المنهج الذي يبني المؤمن بناء يجعل منه طاقة فاعلة تعطي عطاءها في كل ميدان، وقيمة أساسية من قيم التحول عن ساحة التخلف إلى وجه المنعة والرفعة. والآخرة عند ربك للمتقين.

الشجرة الطيبة..
ومثل المؤمن في ساحة البناء
« ٤ »

حين يجعل رسول الله ﷺ من المؤمن إنساناً دائم العطاء، ويجعل الشجرة الطيبة التي تؤتي أكلها كل حين بإذن ربها شبيهة به أو مثله، فتلك قضية كبرى يطرحها رسول الهداية على طريق الأمة التي خوطبت بالرسالة الخاتمة رسالة الإسلام.

وهي حقيقة جديرة بأن توظف في ميادين التربية والتعليم والإعداد بجميع صنوفه وأشكاله بشكل منهجي موضوعي، يحدث جديداً في عالم بناء الإنسان الذي نعده لعملية التحويل الكبرى، تلك التي نرجو الأمة من ورائها - عودة حميدة - إلى أن تمسك هي بعاتق الميزان في العالم، وأن تكون لها الكلمة النافذة بين أمم الأرض، كيما تنقذ نفسها وتنقذ البشرية من ويلات الأقوياء والمتغطرسين من أعداء الإنسان، الذين نعاني ويعاني غيرنا من ظلمهم وإعناتهم الكثير الكثير.

﴿وَيَضْرِبُ اللَّهُ الأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ هذه الكلمات النورانية التي جاءت في خاتمة الآية الثانية لمثل الكلمة الطيبة، علمنا رسول الله من خلالها كيف يكون التذكر هنا؛ فكشف عن أن الحقيقة تكمن في أن تُحمل أمانة العقيدة بحق، وأن يفي المسلمون بعهد الله في التزام مقتضاها بصدق.

والأسلوب الذي سلكه من طريق السؤال على الشكل الذي رأيناه، أسلوب يعمل عمله في إثارة الذهن وتثبيت المعلومات التي يريد المربي تثبيتها.

ورسول الله في هذا لم يكن معلماً يحرك الذهن للفكرة وكفى، ولكنه يثيرها في الأذهان، ويمد يده الصناع كيما يصوغ الإنسان، فيكون صورة حية لها ناطقة بوجودها.

وأود أن أنبه هنا على أن ضرب الصحابة في شجر البوادي وعدم تنبههم السريع إلى النخلة لم يكن من فتور ذهني أو غيبة عن الموضوع، ولكنه لم يخطر ـ ببالهم ـ واللّه أعلم أن يكون السؤال من رسول اللّه عن هذه الشجرة التي تعيش معهم ويستمتعون بخيراتها صباح مساء.

وهذا ـ كما أشرت ـ كان أدعى لتثبيت الحقيقة التي أثارها رسول اللّه في الأذهان حين طرح السؤال.

هذه واحدة، أما الثانية: فهي موقف الأدب والحياء من الفتى عبد اللّه بن عمر، الذي قابله موقف أبيه بأن النطق بكلمة المعرفة إجابة عن سؤال رسول اللّه كان أغلى عنده من حياء عبد اللّه في هذه القضية؛ الأمة الأمية، يربي رسول اللّه أبناءها على عقيدة التوحيد، فيصبح العلم غاية من أعظم غاياتها، فكانت كلمة عمر لابنه عبد اللّه رضي اللّه عنهما حين اعتذر بالحياء أن يتكلم وكبار الصحابة لم يتكلموا **(لأن تكون قلتها أحب إلي من كذا وكذا وفي رواية أحب إلي من حمر النعم).**

العقيدة.. ورحلة البناء وحق الكلمة الطيبة

«٥»

رحلة الأمة إلى غدها المرتقب، عبر مناخ أثرت في نسيجه عوامل من داخل الصف ومن خارجه، وزادت في وضوح ملامحه ـ ضعفاً وقوة ـ متغيرات وظروف من الواقع هنا وهناك.

هذه الرحلة ـ وهي رحلة على دروب البناء بكل ما تعنيه أبعاد البناء، وما يجب أن يرافقها من تنمية للطاقات الفاعلة المنتجة.. ـ مؤشراتُ نجاحها في الاستمرار والوصول إلى الأهداف المرسومة، أن يظلل خطواتها إحكام الارتباط بالكلمة الطيبة، كلمة التوحيد «لا إله إلا اللّه محمد رسول اللّه» التزاماً بحقها في حياة الفرد والمجتمع، وصدقاً في متابعة السير على هداها، دون وقوف عند المعوقات والصوارف مهما كان شأنها، لأن مما تقتضيه طبائع الأشياء: أن يقيم الباطل عقبات على طريق الحق وأهله.

وهذا الذي نشير إليه بشأن رحلة البناء الحقيقي والنماء، حقيقة هدانا إليها واحد من المعالم القرآنية في سورة إبراهيم ـ كما رأينا في كلام سلف من قريب ـ حيث بيّن اللّه تبارك وتعالى في هذه السورة المكية للجماعة المسلمة وهي ما تزال في مكة قبل الهجرة، والمشركون يستضعفون المؤمنين ـ وهم قلة في العدد ـ ويعملون على محاصرتهم، وإغلاق منافذ الحياة دونهم، ولا يألونهم إرهاقاً وظلماً وعسفاً... بين اللّه جلت حكمته أن عقيدة التوحيد لا بد أن تكون المنطلق في هدم الباطل بكل شعبه ومظاهره، وبناء صروح الحق على أنقاض هذا الباطل، ولا بد أن تكون نور

الهداية عند مزاولة الهدم والبناء، لما أنها هي النبع الخيِّر الذي لا ينفد عطاؤه بإذن اللَّه، فهي تعطي وتعطي في شمول للإنسان والزمان والمكان... إنها تبني الإنسان والحياة دون انحسار عند زمان أو مكان.

وتقريباً لهذه الحقيقة في عمقها وسعة ميادينها والجوانب التي ترعاها، ضرب اللَّه المثل لكلمة التوحيد بالشجرة الطيبة التي أصلها ثابت وفرعها في السماء، تؤتي أكلها كل حين بإذن ربها. ذلكم قوله تبارك وتعالى في هذه السورة سورة إبراهيم: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ ﴿٢٤﴾ تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٥﴾﴾[إبراهيم: ٢٤-٢٥].

وفي دعوة إلى فهم الأمثال بنفاذ ـ ومنها هذا المثل العظيم ـ كيما يكون من وراء ذلك: التذكرُ النافع قال سبحانه في ختام الآية الثانية من الآيتين: ﴿وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾.

والتذكر النافع هنا هو الذي يحمل على العمل بحق «لا إله إلا اللَّه محمد رسول اللَّه» في استقصاء لجميع الشؤون اعتقاداً، وعلماً، وعبادة، وتعاملاً، أداء للواجبات، وحفاظاً على الحقوق، وتنمية لكل الحوافز التي تجعل من الفرد لبنة قوية في مجتمع مؤمن قوي.. وتلكم مؤشرات نجاح المرحلة إلى الغد المرتقب بإذن اللَّه.

وطوبى لأهل الاستقامة العاملين بحق الكلمة الطيبة في كلِّ الميادين!